

حديث السخرية في القرآن

السخرية تفيد معنى الاستهزاء . تقول العرب : هزئ به واستهزأ به ، مثل قولهم : سخر منه . وقيل : الهزء مزحٌ في خفة . والاستهزاء : الاستخفاف ، والاستهزاء بالشخص احتقاره وعدم الاهتمام بأمره .
وكثيراً ما يصحب ذلك السخرية منه ، وهي الضحك الناشئ عن الاستخفاف والاحتقار .

وتقول العرب : سخر منه ، وسخر به : أي هزئ به واحتقره . وسخر الله منهم : أهانهم . واتخذهم سخريةً : أي مثار استهزاء . واستسخره : بالغ في السخرية به . وقد يطلق الضحك بمعنى السخرية ، ومن ذلك قولهم : ضحك به ، أو سخر ، ويراد منه التعجب . وقد يطلق أيضاً على هذا المعنى كلمة : التفكه .

وللسخرية في القرآن الكريم حديث يساق :

ولما كانت السخرية - في الغالب - لوباً من التناول على الإنسان ، والاستخفاف بالغير ، لم يرتض الإسلام - وكتابه القرآن المجيد - أن تكون صفةً من صفات المؤمنين ، اللهم إلا في حالة الانتصاف ورد الكيد إلى أهله

لأن القرآن يقول : « وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ » (الشورى ٣٩) .
 وجعل القرآن رذيلة السحرية المتطاولة الجاهلة صفة غالبية على الكافرين
 المحرمين ، ولذلك قال عنهم في سورة الصافات : « وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ »
 (الآية ١٤) . أى يدعو بعضهم بعضاً إلى أن يسخر ، كأنهم يتنافسون في
 السحرية ، أو يتواصون بها ، للتسابق في الشر .

ويحدثنا القرآن بأن شر أنواع السحرية هو سحرية الكافرين بالرسول ،
 وذلك لأن الرسل هم التهاذج العليا للبشر ، وهم الدعاة الهداة بأمر الله وتوجيهه ،
 وطاعة الرسول من طاعة الله ، ومحنته من محبة الله ، فإذا تطاول عليهم
 متطاول ، أو استهزأ بهم مستهزئ ، فكأنه يتطاول بذلك على مقام ربه سبحانه
 وتعالى .

ونحن نجد القرآن في سورة « هود » عليه السلام ، يقص لنا قصة نوح عليه
 السلام مع قومه فيما يتعلق بالسفينة والطوفان ، فيقول فيما يقول :
 « وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكَلَّمَا مَرْعِلَهُ مَلَأْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا
 مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ . فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ
 عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » (الآيتان ٣٨ ، ٣٩) .

أى يأخذ نوح - عليه السلام - في صنع السفينة التي ستحمل المؤمنين
 لإنقاذهم من كارثة الطوفان ، ويصنع نوح ذلك استجابة لأمر ربه القوى القادر ،
 وانتظاراً لوعده الكريم المأمون بالنجاة والفوز ، ويمر عليه قومه ، جماعة بعد
 جماعة ، وفوجاً إثر فوج ، وكلما مرت عليه جماعة سخرت من عمله ،
 واستهزأت به ، وتندرت عليه .

لقد حسبه في زعمهم مجنوناً ، أو مصاباً بهوس ، وعلى الرغم من أنهم
 يرون بأعينهم ما يصنعه ، يسألونه في استهزاء واستخفاف : ماذا تصنع يا نوح ؟

فيجيهم : أصنع بيتاً على الماء ! . . .

وهو صادق كل الصدق في إجابته ، لأنه يصنع سفينة تسير فوق الماء ، ولكن لعل السفن لم تكن مألوفاً لديهم ، أو لم يكن عندهم دقة النظر التي تمكنهم من فهم جوابه .

وحينما يوجهون سحريتهم إلى نوح يرد عليهم قائلاً في انتصاف : إن تسخروا منا - لجهلكم فائدة ما أصنع ، فإننا - نحن المؤمنين - سنجاريكم من جنس عملكم ، فسخر منكم اليوم لجهلكم ، وسخر منكم غداً ، لما يحل عليكم من انتقام الله عز وجل .

وسوف تعلمون غداً من يصيبه عذاب يذله في الدنيا ، ثم يصيبه في الآخرة عذاب دائم ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

ويرصد صاحب « طلال القرآن » هذا المشهد من مشاهد قصة نوح ، ويلحظ ما في كلمة « يصنع الفلك » من حيوية فيقول : « التعبير بالمضارع فعل الحاضر - هو الذي يعطى المشهد حيويته وجدته ، فنحن نراه ماثلاً لخيلنا من وراء هذا التعبير . يصنع الفلك ، وترى الجماعات من قومه المتكبرين يبرون به فيسحرون ، يسحرون من الرحل الذي كان يقول لهم : إنه رسول ، ويدعوهم ، ويجادلهم فيطيل جدالهم ، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً . إنهم يسحرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ، ولا يعلمون ما وراءه من وحى وأمر ، شأهم دائماً في إدراك الظواهر ، والعجز عن إدراك ما وراءها من حكمة وتقدير .

فأما نوح فهو واثق عارف ، وهو يخبرهم أنه يبادلهم سخرية بسخرية : « قال : إن تسخروا منا فإننا نسخر منكم كما تسخرون » نسخر منكم لأنكم لا تدركون ما وراء هذا العمل من تدبير الله ، وما ينتظركم من مصير : « فسوف تعلمون من

يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم .

أنحن أم أنتم ، يوم ينكشف المستور عن المحذور !!

• • •

وإذا كانت سخرية هؤلاء الطغاة المجرمين بنى الله نوح مثلاً لفسق الإنسان وفجوره حين يسخر بداعية ربه ورسول خالقه ، وقد وقع هذا الإثم الفاجر في الزمن القديم ، فإن الإنسانية - ممثلة في بعض أبنائها الطغاة - لم تكف عن هذا الإثم الآثم ، بل ظل رسل الله عليهم الصلاة والسلام يلقون مثل هذه الجريمة - السخرية - ممن كتب الله عليهم الشقوة ، وأعد لهم سوء العذاب وهذا هو القرآن يوثق ذلك النبأ حين يقول في سورة الأنعام :

« وَلَقَدْ اسْتَهْزَأُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ » (الآية ١٠) .

فأهل الكفر والضلال قد استهزؤا برسل كرام عظام من رسل الله قبلك يا محمد عليك الصلاة والسلام وربك بالمرصاد ، فألحق بأولئك الساعرين ما يستحقونه من عقاب ، وتاريخ هؤلاء يحدثك عن ألوان البلاء والهلاك التي نزلت بهم ، وهذا جزاء عادل مقابل استهزائهم بالرسل عبيهم الصلاة والسلام .

وكان هذه الآية الكرمة نوع من التسلية لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وتبشير له بأن الله سينصره على أولئك الساعرين ، ويتقم له منهم بعدايبه وعقوبته ، وإذا كان المشركون قد طغوا وبغوا على رسول الله محمد ، بألوان من التكذيب والاستهزاء والإيذاء ، ويحسبون أنهم بمنجاة من سوء والعذاب ، فقد كان الذين سقوهم من طعنة الحياة أشد منهم قوة وملا ، وكانوا يحسبون كما يحسب المشركون أنهم آمنون لا تنالهم عاقبة طغيانهم ، ولكن الانتقام أحاط

بهم كما سجل القرآن وصادق التاريخ .

وهؤلاء المشركون الذين يسخرون منك - يا محمد - سيقاقون ما لاق
أسلافهم . . .

لا تحزن ... إنهم على الطريق ، وبش الطريق !

• • •

ويعود القرآن المجيد ليعرض علينا مشهداً من مشاهد سخرية المجرمين
بخيبة الناس أجمعين .

يتحدث القرآن إلى الرسول في سورة « الصافات » عن المشركين المنكرين
للبعث والحساب ، فيقول له فيما يقول : « بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ، وَإِذَا
دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ، وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ » (١٢ - ١٤) .

إنك قد عجبت يا محمد من حماقة هؤلاء وسفههم ، حين كذبوا بالبعث ،
وأنكروا القيامة ، وأنت موثق بصدقه وحقه . وهم مع ذلك يسخرون من هذا
الحق المبين ، وكلما شاهدوا دلالة على صدقك أعرضوا عنها واستهزؤا بها .

وحق لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما يعبر صاحب ظلال القرآن - أن
يعجب من أمرهم ، فإن المؤمن الذي يرى الله في قلبه كما يراه محمد صلى الله
عليه وسلم ، ويرى آيات الله واضحة هذا الوضوح ، كثيرة هذه الكثرة ، يعجب
لأشك ويدهش : كيف يمكن أن تعمى عنها القلوب ، وكيف يمكن أن
تقف منها هذا الموقف العجيب !

وبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجب منهم هذا العجب ، إذ هم
يسخرون من القضية الواضحة التي يعرضها عليهم ، سواء في وحدانية الله ، أو
في شأن البعث والنشور ، وإذا هم مطموسون ، لا تتفتح قلوبهم للتذكير ،
وإذا هم يتلقون آيات الله بالسخرية الشديدة ، والتعجب ممن يريهم إياها ،

واستدعاء أسباب السخرية ، وطلبها طلباً كما يوحى لفظ « يستسخرون » !

• • •

وبعد سخرية المحرمين بالمسلمين تأتي جرعة السخرية من الكافرين بالمؤمنين . . .

يقول الله جل علاه في سورة البقرة :

« زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا قَوْمَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ » (الآية ٢١٢) .

إن الذين لا يؤمنون بالحق الثابت ، والحقوق المشروعة لله وللناس ، بل يفضلون زينة الدنيا على ما عند الله سبحانه من النعم المقيم الدائم ، جعلوا هذه الزينة أكبرهمهم وغاية قصدهم ، وهم يهرون بالمؤمنين الصادقين ، ويسخرون من فقرائهم ، لأنهم محرومون من ربة الدنيا بسبب فقرهم ، ويسخرون من أعياء المؤمنين ، لأنهم - في زعم الكافرين - لا يتمتعون بأموالهم وغناهم في مآذل الحياة وشهواتها ووجوه إسرافهم ، بل يستعدون للقاء ربهم ، ويحلون أنفسهم بمكارم الأخلاق ومحامد الفعال .

وأغنياء المؤمنين يرون لذتهم في خدمة غيرهم ، والقيام بحقوق الأفراد والجماعات ، وكلما أنفق المؤمنون في سبيل الخير مغنماً ، عده أولئك الكافرون مغرماً ، وزادوا في سخريتهم ، ولبس ما يفعلون .

وفي هذه الآية يخبر الله تعالى - كما يذكر ابن كثير - عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها ، واطمأنوا إليها ، وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمرهم الله بها ليرضى عنهم ، وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها ، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم ، وبذلوه ابتغاء وجهه ، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والخط الأوفر يوم معادهم ، فكانوا فوق أولئك في

محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم ، فاستقروا في الدرجات في أعلى عليين ،
وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين .

• • •

ويقدم القرآن الحكيم لونا آخر من سخرية الكافرين بالمؤمنين :

يقول الله تبارك وتعالى في سورة التوبة عن المنافقين :

« الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ، وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ
إِلَّا جُهْدَهُمْ ، فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (الآية ٧٩) .

تتحدث الآية الكريمة عن أولئك المنافقين الآثمين ، الذين يعيبون المؤمنين
المتطوعين بالخير والإنفاق ويطعنون فيهم ، لا لعب عندهم ، ولا لسيئة منهم ،
بل لأنهم يتطوعون ، ويتبرعون بأموالهم وأشيائهم لمن يستحقون المعاونة ؛ وكذلك
يعيب أولئك المنافقون اللؤماء ، على الفقراء المؤمنين الذين يتصدقون بالقليل
الذي يدخل في وسعهم وطاقاتهم .

والله المنتقم العادل يسخر من أولئك الساخرين ، ويعذبهم بما أوجروا .
وسمى عذاب السخرية هنا سخرية على طريق « المشاكلة » والجزاء من جنس
العمل ، فجازاهم بمثل ذنبهم ، فجعلهم بقدرته سخرية للمؤمنين وللناس
أجمعين ، حيث فضح نفاقهم ، وكشف صغارهم ، ثم توعدهم بعذاب أليم من
بعد ذلك .

ولقد جاء في صحيح الإمامين البخاري ومسلم عن أنس بن مالك عن النبي
صلى الله تعالى عنه قال :

« ما أمر بالصدقة كنا نتحامل (أي يحمل بعضنا لبعض بالأجرة) فجاء
أبو عقيل الحباب بنصف صاع ، وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن
الله غني عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياء » ، فأمر الله تعالى قوله :

« الذين يلزمون المطوعين من المؤمنين في الصدقات . . . » إلخ .

وجاء في رواية أن النبي صلى الله عليه وسلم حث الناس على الصدقة ، فجاء عمر بصدقة ، وعثمان بصدقة عظيمة ، وبعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم - يعني عبد الرحمن بن عوف - ثم جاء أبو عقيل بصاع من تمر . فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ، وأما أبو عقيل وبما جاء بصاعه ليذكر نفسه ، فنزلت الآية الكريمة .

وعن عكرمة قال :

حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة - يعني في غزوة تبوك - فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، فقال : يا رسول الله ، مالى ثمانية آلاف ، جئت بنصفها ، وأمسكت بنصفها .

فقال له الرسول : بارك الله لك فيما أمسكت ، وفيما أعطيت .

وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال : يا رسول الله ، أصبت صاعين من تمر . صاع أقرضه لربي ، وصاع لعبالي .

فلزم المنافقون فقالوا : ما الذى أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا عن صاع أبى عقيل . ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟

• • •

وإذا كان الحق جل جلاله لا يرتضى للمؤمنين أن يتدنسوا بدنس السخرية الجاهلة المتطاولة ، لأنها رديلة من شأن الكافرين والفاسقين ، فإن الله عز شأنه يتيح للمؤمنين فرصة السخرية المتصفة المتقدمة ممن يستحقون الانتقام ، لأن المؤمنين لو استاموا للسخرية ترحف إليهم وتتطاول عليهم من هنا وهناك ، لكان من وراء ذلك شركير وبلاء مستطير .

ومن هنا أخبر الله جل جلاله أنه سبحانه يستهزئ بالمجرمين ويجازيهم على

سفاهتهم ، وأن المؤمنين لم موقف مشهود يسخرون فيه من الفاجرين والكافرين ، ويضحكون منه ، وما أعدن السخرية حين تأتي رداً على طغيان ، أو قهراً لكفران .

يقول الله تعالى في سورة المطففين :

« إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ . وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ . وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ، وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ، فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ . عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ، هَلْ نُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » : (الآيات من ٢٩ - ٣٦) .

إن الأستاذ الإمام يعلق على هذا المشهد بتلك الكلمات .

« من شأن القوى المستعز بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه في المتزع ، ويدعوه إلى غير ما يعرفه ، وهو أضعف منه قوة وأقل عدداً .

كذلك كان شأن جماعة من قريش - كأي جهل ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وأشياعهم - وهكذا يكون شأن أمثالهم في كل زمان ، متى عمت البدع ، وتفرقت الشيع ، وحنى طريق الحق بين طرق الباطل ، وجُهل أمر الدين ، وأزهقت رُوحه من عباراته وأساليبه ، ولم يبق إلا ظواهر لا تطابقها البواطن ، وحركات أركان لا تشايعها السرائر ، وتحكمت الشهوات ، فلم تبق رغبة تجذب الناس إلى العمل ، إلا ما تعلق بالطعام والشراب ، والزينة والرياش ، والمناصب والألقاب ، وتشبثت الهمم بالمجد الكاذب ، وأحب كل واحد أن يُحمد بما لم يفعل ، وذهب الناقص يستكمل ما نقص منه بتنقيص الكامل ، واستوى في ذلك الكبير والصغير ، والأمير والمأمور ، والجاهل والملقب بلقب العالم ...

إذا صار الناس إلى هذه الحال ، ضعف صوت الحق ، وازدري السامعون منهم بالداعى إليه ، وانطبق عليهم نصُّ الآية الكرّمة . وإذا مروا بأحد من أهل الحق يغمر بعضهم بعضاً هزواً به .

وإذا انقلب هؤلاء الضالون إلى أهلهم ، ورجعوا إلى بيوتهم ، رجعوا إليها فكهين ، ملتذّين بحكاية ما يعيّنون به أهل الإيمان ، إذ يرمونهم بالسخافة وقلة العقل ، كأن يقولوا : عجبا ، هذا فلان يقول لا تدعوا إلّا إلهاً واحداً ، ولا تتوجهوا بالطلب فيما يفوق طاقتكم إلّا إلى الله وحده خالق السموات والأرض . فأين الأولياء والشفعاء ؟ . وكم فعلوا وتركوا ، وضروا ونفعوا . . . وهو ينكر جميع ذلك ، كأن الناس جميعاً في ضلال ، وهو وحده يعرف الحق ! ! . . . وبحر ذلك مما يعدونه فكاكة يتلذذون بحكايته .

ثم يضيف الأستاذ الإمام :

« ذلك ما كان من معاملة المجرمين للمؤمنين في الدنيا : يهزّون بهم ، ويضحكون منهم ، ويجعلونهم أحاديث لحو ولغو . فانظر ما تكون معاملة المؤمنين لهم يوم القيامة . . .

« فاليوم » . . . أى يوم الدين والجزاء . . . « الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .. لا ضحك الجاهل المغرور ، بل ضحك الموقن المرسور . . . ضحك من وصل به يقينه إلى مشاهدة الحق فسرّبه ، وانكشف لهم بالبيان ما كانوا يرجونه من إكرام الله لهم . وحذلانه لأعدائهم ، فسروا بذلك وفرحوا ، وضحكوا من أولئك المغرورين الجحدة ، الذين تجلّت لهم عاقبة أعمالهم ، وظهر لهم سفه عقولهم ، وفساد أقوالهم ، فنكّست أعناقهم لخزيمهم وذلمهم . فما أعظم مجد المؤمنين في ذلك اليوم . . . على الأرائك ينظرون » إلى

صنع الله بأعدائهم ، وتذليله لمن كان يفخر عليهم ، وتنكيله بمن كان يهزأ بهم جزاءً وفاقاً .

قيل إن الله تبارك وتعالى يهيئ الفرص أمام المؤمنين في الدار الآخرة ، لكي يضحكوا من هؤلاء الكافرين الساخرين ، وقيل إن هناك كوى مفتوحة بين الجنة والنار ، يطلع منها أهل الجنة ، فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له في الدنيا ، اطلع من كوة من هذه الكوى ، فذلك قول الله تعالى : « فاطلع فراه في سواء الجحيم » .

وذكر ابن المبارك أنه يقال لأهل النار - وهم في النار - : اخرجوا . ففتح لهم أبواب النار ، فإذا رأوها قد فتحت أقبلوا إليها يريدون الخروج ، والمؤمنون ينظرون إليهم على الأرائك ، فإذا انتهوا إلى أبوابها غلقت دونهم ، فذلك قوله تعالى : « الله يستهزئ بهم » . ويضحك منهم المؤمنون حين غلقت دونهم ، فذلك قوله سبحانه : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » .

• • •

والقرآن المجيد الذي حدثنا فيما سبق أن السخرية المتطاولة رذيلة فاحشة ، وأن شر أنواع هذه الرذيلة ما كان موجهاً إلى مقام رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وأن الرذيلة التي تليها هي سخرية الكافرين بالمؤمنين ، يحدثنا بأن عاقبة السخرية - وخيمة ذميمة ، وأن عاقبة المسخور بهم المظلومين في هذه السخرية عاقبة عظيمة كريهة ، فالعذاب يتوعد الساخرين ، والفوز ينتظر المسخور بهم المؤمنين .

يقول الحق جل جلاله في سورة « المؤمنون » عن الكافرين وهم في النار : « قَالَ اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُوا ، إِنَّهُ كَانَ قَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ، فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي

وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ، إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ .
(الآيات ١٠٨ - ١١١)

إن الكافرين يحاولون يوم العذاب أن يخرجوا من النار ، ويرجون ذلك ، فيكون الجواب من قبل الحق جل جلاله : « اخشوا فيها » ... امكثوا فيها . صاغرين أدلاء ، ولا تعودوا إلى سؤالكم هذا ، فلن تجابوا إليه .

ويذكرهم الله سبحانه بإحدى جرائمهم الشنيعة ، وهي سخريتهم بفريق المؤمنين الطائعين المستعفرين ، حتى حملهم إسرافهم في السخرية على نسيان الله عز شأنه ونسيان حقوقه الواحة .

ويؤكد الكتاب العزيز أن السخرية بالإيمان ، والاستهزاء بالدين وأوامره ، بما يفضي إلى الخسار والوبار ، وها هو ذا يقول في سورة الزمر :

« أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتًا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِيرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ . بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ . وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَحُوهُمْ مُصَوَّدَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ، وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِثْقَاتِهِمْ لَا بِمِثْمِ السُّوءِ وَلَا هُمْ يُحْزَنُونَ » . (الآيات من ٥٦ - ٦١) .

وفي سورة « ص » يقول القرآن عن الكافرين : « وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كَمَا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ، أَلْتَّخَذْنَا هُمْ سِجْرًا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ ؟ »
(الآيتان ٦١ ، ٦٢) .

وهذا مشهد من مشاهد الآخرة يعرضه علينا ربنا الجليل في كتابه ، حيث نرى أهل النار يفتقدون من حولهم رجلا كان الكافرون يعدونهم من الأشرار ، وهم المؤمنون الذين يزعم الكفار أنهم أهل الضلال ، ويقول الكافرون حينئذ :

مالنا لا نراهم معنا هنا في النار؟

ثم يتلبلون في الرد على أنفسهم الضالة ، فيقولون : أكنا نسخرهم في الدنيا أم هم موجودون معنا في النار . ولكن أبصارنا لا تراهم ؟

وكذبوا وضلوا وخابوا ... إن هؤلاء المؤمنين ليسوا هنا ، إنهم هناك في الدرجات العلى ، حيث الثواب العظيم والنعيم المقيم ، وليدرك أهل الضلال الآن إدراك المعاينة أن عاقبة السخرية وخيمة .

• • •

ومن حقنا أن نؤكد أن الله الحكيم العليم الذي حرم السخرية الجاهلة المتطاولة ، قد أباح السخرية المتصفة من أهل البغي والطغيان ، ولذلك قال القرآن على لسان نوح للكافرين من قومه : « إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » . أى إن تستجهلونا - أى تحملونا على الجهل على سبيل الهزء - فإنا ستجهلكم كما تستجهلون ، وذلك على حد قول الأول :

ألا لا يحجل أحد علينا فنجل فوق جهل الجاهلينا

وقد سبق قوله عز من قائل : « فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون » : لقد كان المجرمون يسخرون بالمؤمنين في الدنيا بغياً وعدواناً ، فلما انطوت صفحاتها ، وأقيمت الآخرة الباقية ، انقلب الوضع ، وتعبرت الحال ...

لقد ذل الكفار اليوم وهانوا ، وضاعت كرامتهم تحت أقدام العذاب ، واعتز بالله عباده المؤمنين ، وتبأت أمامهم الفرصة ليتصفوا وينتقموا ، فهم اليوم من الكفار يضحكون ، وشتان ما بين ضحكك وضحك ، وما بين سخرية وسخرية .

• • •

هذا ولقد ذكر الله تعالى النهى عن السخرية صراحةً بلا غموض

ولا إجمال ، حيث قال في سورة الحجرات :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ، وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ ، وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » (الآية ١١) .

وهذا نهي صريح للمؤمنين عن السخرية بغيرهم - رجالا كانوا أم نساء - لأنها حرام ، وربما كان المسخوريه أكرم عند الله من الساخر المتطاول ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول :

« الكبر بطر الحق ، وغمط الناس »

وبطر الحق هو أن يتجبر المرء عند الحق فلا يراه حقاً ، وقيل هو أن يتكبر عن الحق فلا يقبله ، وغمط الناس هو الاستهانة بهم والاحتقار لهم .

وكذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم . كل المسلم على المسلم حرام : دمه وماله وعرضه » .

والمجتمع المؤمن مجتمع يترفع عن الدنيا ، ويحرص على تكريم الأخوة الإنسانية الموحدة بين كل فرد وفرد ، وتكريم الأخوة الإيمانية القائمة بين كل مؤمن ومؤمن . فكرامة هذا الفرد - سواء أكان رجلاً أم امرأة - مصونة معزة لا يجوز أن تمس ، وهذا الفرد يمثل كل الأفراد ، فاحترامه احترام لكل الأفراد ، والتطاول عليه يعد تطاولاً على كل الأفراد : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » (الحجرات الآية ١٠) .

فلا يليق والأمر كذلك أن تصدر سخرية أو تطاول أو استهزاء من فرد على فرد . ولقد يزن الشخص غيره بميزان لا يستقيم وزنه عند الله ، فله ميزان إلهي عادل ، أساسه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فليس الغنى والفقر ، ولا الجمال والقبح ، ولا نحو ذلك ، بميزان مرضى لدى الله أعدل العادلين .